عائشة الباعونية

تمهيد

حفزني الى نشر ترجمة عائشة الباعونية الدمشقية في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية حوافز عدَّة أهمها هذه النهضة النسائية القائمة على ضفاف بردى والتي نرجو ان تنجب لنا أمثال عائشة وسميتيها ومواطنتيها عائشة بنت علي بن محمد بن عبد الغني ابن المنصور الدمشقية ، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الصالحية الحنبلية ، بل مثل امّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وزوج النبي الكريم التي علمتنا من أمور ديننا ما لم نعلم ، وروت لنا ما يربي على الألفين من أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، واشتركت في الوقائع والكوائن وكانت فصيحة الكلام صحيحة المنطق ، راجحة العقل ، سريعة البديهة ، بل كان بيانها السحر الحلال .

ومن تلك الحوافز ان يعلم فتياتنا النواهض ان الله لا يضيع أجر عامل ، وان التاريخ يحفظ للمرأة حقها كما يحفظه لشقيقها الرجل ، والنساء كما قال الرسول الأعظم شقائق الرجال وان العلماء يقدرون المرأة الفضلى حق قدرها ، ويحلونها المحل الأرفع من التبجلة والحرمة الوافرة في حياتها ، كما أنهم يترجمون لها ويوفونها قسطها من الاجلال والاكبار بعد مماتها .

ومنها أن يتعلمن الجرأة وركوب مراكب الاغتراب في طلب العلم ونيل الأماني من المترجم لها ، التي حملت الى القاهرة وهي في ميعة الشباب فنالت الحظ الأوفر من العلوم ، ثم دخلتها وولدها لقضاء مأرب له وهي كهلة ، وقارظت العلماء الشعر فقرَّظوها وأثنوا عليها بما هي أهله .

وان يقلدنها بذلك الطموح الذي حملها على الذهاب الى حلب للمثول بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدي السلطان الغوري أحرص الملوك المصريين على كرامة امته واشدهم اندفاعًا في الدفاع عن بلاده في السنة التي جاست بها جيوش العثمانيين خلال ديار الشام ، ووطئت سنابك خيولهم ارضها في مرج دابق ، وقضت على سلطانه الواسع العريض فيها وفي مصر والحجاز مما نستدل معه على ان الباعونية كانت لا تبالي بالحوادث والكوارث وهو ما نتمناه لفتياتنا اليوم .

ومنها أن نعلم ان المترجم لها قد أنشأت المولد النبوي الشريف سنة ٩٠١ هـ ١٤٩٥ م ، وانها نظمت بديعيتها وشرحتها سنة ٩١٩ هـ ١٥١٣ م وان نقرأ كلامها العذب الذي اختتمتها به .

ومنها ان الذين ترجموا لها من المتأخرين مثل البستانيين[١] وزينب بنت علي نواز العاملية[٢] وادوار فنديك[٣] وجرجي زيدان[٤] ومحمد كرد علي[٥] ويوسف اليان سركيس[٦] كانوا عيالاً على من تقدمهم من المترجمين كما كان مثلهم محمد ذهني[٧] وشمس الدين سامي[٨] الأعجميين اللذين ترجما لها ولم يلموا بجميع أحوالها .

لذلك كله أردت أن انقل من كناشي ما كنت دوّنته عن بديعية الباعونية واردفها بترجمة حياتها عن أقدم مترجميها فأقول :

نسخة مخطوطة من البديعية وشرحها . — كنتُ اطلعت في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس على نسخة مخطوطة من بديعية عائشة الباعونية وشرحها نقلت

(١) دائرة المعارف جزء ١١ صفحة ٤٦٩
(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ٢٩٣
(٣) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٣٦١ و ٣٩٣
(٤) تاريخ آداب اللغة ج ٣ ص ٢٧٤
(٥) خطط الشام ج ٤ ص ٦٠
(٦) معجم المطبوعات العربية والمعربة ص ٥١٩
(٧) مشاهير النساء « أي شهيرات النساء » بالتركية ج ٢ ص ١٠
(٨) قاموس الأعلام ج ٤ ص ٣٠٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن نسخة المؤلفة التي نظمتها وشرحتها سنة ٩١٩ هـ ١٥١٣ م ، وقد نقلها ناسخها في اليوم التاسع من شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م وهي السنة التي توفاها الله فيها وذيلها بما كانت كتبته المؤلفة بآخرها اذ قالت :

كلمة المؤلفة الختامية . — « نجزت كتابتها بمنة الله تعالى على يدي أضعف اماء الله تعالى وأحوجهن الى رحمته ، من أهّلها الله تعالى لمدح خير بريته وأشرف اهل الاصطفاء لرسالته ، عبده الأكرم ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم وعظم بهذه القصيدة المذكورة والمنظومة التي أرجو من كرم الله تعالى أن تكون في الملإ الأعلى مشكورة خادمة المقام المحمدي المصطفوي سراً وعلنا ، والمغمورة منه بالحسنى وزيادة آلاءً ومننا ، عائشة العائشة باتصال مدده المتروّية على يده بنت خادم شريعته يوسف ابن خادم شريعته أحمد بن ناصر الباعوني الشافعي لطف الله بها وبولدها وبالمسلمين والمسئول من الله تعالى أن يجدي عوائد مبراته واحسانه ولطائفه وحنانه أبداً أبداً باقيا سرمداً . »

وكتب ناسخها بعد ذلك :

تعليق الناسخ . — علقها لنفسه ولمن شاء الله من بعده أفقر عباد الله وأحوجهم الى مغفرته محمد بن احمد بن يحيى الانطاكي ستر الله عيوبهم وغفر ذنوبهم . »

تقريظ أحد متملكيها . — وكتب أحد من تملكوا تلك النسخة يقول للمحرر السيد أبي بكر :

أتت ببديع لو رآه ابن حجة لأذعن ان الفضل حازته عائشه
فقد عشت في روض الجنان عزيزة كما كنت في روض البلاغة عائشه

كتب المترجم لها المطبوعة . — وبالرغم من شرح بديعيتها المسمى الفتح المبين في مدح الأمين طبع أولاً في بولاق سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م وبهامشه رسائل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بديع الزمان الهمذاني ، وثانيًا في مصر بهامش خزانة الأدب لابن حجة الحموي سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م فاننا عرضنا له بهذه الكلمات التي استفدنا منها معرفة تاريخ نظم البديعية وشرحها .

وعلى ذكر البديعية نقول أن مؤلفها في « مولد النبي » عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قد طبع أيضًا في دمشق سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م

مؤلفاتها المخطوطة الموجودة الآن . ولم يبق من مؤلفاتها الباقية الى الآن بدون طبع سوى ديوانها المسمى « فيض الفضل » منه نسختان احداهما كتبت سنة ١٠٣١ هـ ١٦٢٢ م ونسخة ثالثة كتبت أيضًا في السنة المذكورة في الخزانة التيمورية ، وفي تلك الخزانة الغنية أيضًا نسختان مخطوطتان من شرحها على بديعيتها الأولى كتبت سنة ١٠٢٦ هـ ١٦١٧ م ضمن مجموعة ، والثانية حديثة كتبت سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م

كتاب بخط المؤلفة . — ولعل من أجمل ما تحويه الخزانة التيمورية هو المولد النبوي الذي أنشأته وأسمته « المورد الأهنى في المولد الأسنى » والنسخة بخط يدها كتبتها سنة ٩٠١ هـ ١٤٩٥ م وقد ذكر لي المرحوم صاحبها بكتابه أن خطها في غاية الحسن وانها صارت تلحق بآخر النسخة تواريخ مواليد أولادها ، وكانت متزوجة من أحد الشرفاء لأنها كلما ذكرت ميلاد أحدهم قالت ولد لي السيد الشريف فلان في تاريخ كذا

ترجمتها . — أما ترجمتها فلخصناها عن كتاب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة لمحمد بن محمد نجم الدين الغزي العامري الدمشقي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ ١٦٥١ م وهو أقدم من ترجم لها قال[1] :

« عائشة بنت يوسف بن احمد بن ناصر الشيخة الأديبة العالمة العاملة ام

(١) نسخة الخزانة التيمورية بالقاهرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد الوهاب الصوفية الدمشقية بنت الباعوني احدى أفراد الدهر ونوادر الزمان فضلاً وعلماً وآداباً وشعراً وديانةً وصيانةً ٠

تنسكت على يد الشيخ السيد الجليل اسماعيل الخوارزمي[١] ثم على خليفة المحيوي يحيى الأرموي ثم حملت الى القاهرة ونالت من العلوم حظًا وافراً وأجيزت بالافتاء والتدريس ، وألفت عدّة كتب منها الفتح الخفي[٢] يشتمل على كلمات لدنية ومعارف سنية ، وكتاب الملامح الشريفة والآثار المنيفة ، يشتمل على انشادات صوفية ومعارف ذوقية ، وكتاب درّ الغائص في بحر المعجزات والخصائص ، وهو قصيدة رائية ٠ وكتاب الاشارات الخفية في المنازل العلية ، وهي أرجوزة اختصرت فيها منازل السائرين للهروي ، وأرجوزة أخرى لخصت فيها القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي وبديعية وشرحها وغير ذلك ومن كلامها الخ ٠ »

وبعد أن نقل عبارة لها وصفتْ فيها نشأتها الصوفية قال : « ولما دخلتْ القاهرة ندبت لقضاء مأرب لها يتعلق بولد لها كان في صحبتها المقرّ ابو الثناء محمود بن أجا الحلبي صاحب دواوين الانشاء بالديار المصرية فأكرمها وولدها وأنزلها في حريمه وكانت قد مدحته بقصيدة أوّلها :

روى البحر أسباب[٣] العطا عن نداكمُ ونشر الصبا عن مستطاب ثناكم

فعرضها على شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري[٤] فأعجب بها فبعث اليها بقصيدةٍ من بديع نظمه فأجابت عنها بقصيدة مطلعها :

وافت تترجم عن حبرٍ هو البحرُ بديعة زانهـا مع حسنها الخفرُ

ثم أورد لها قصيدة لامية مطلعها

---

(١) في الدر المنثور في طبقات الحدور ص٢٩٣ الحوراني

(٢) في الأصل الحنفي وما نحاله إلا من خطأ الناسخ (٣) في شذرات الذهب المخطوط أسباب

(٤) هو عبد الرحيم بن عبد الرحمن أحمد العباسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ ١٥٥٦م وترجمته في الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية المطبوع بهامش وفيات الأعيان طبع بولاق ج ١ ص٦٦٥ وكذلك في ريحانة الألبا وزينة الحياة الدنيا للخفاجي ص ٢٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قل لمن بالقريض يزّ الفحولا واثنى عن قصورهم مستطيلا

وقصيدة أخرى مطلعها :

ليهنك مجد طارف وتليد يخصك آباء به وجدود

وغير ذلك الى أن قال :

« وذكر ابن الحنبليّ : أن صاحبة الترجمة دخلت حلب في سنة ٩٢٢ والسلطان الغوريّ بها لمصلحةٍ لها كانت عنده فاجتمع بها من وراء حجاب البدر السيوفيّ وتلميذه الشمس السفيريّ وغيرهما، ثم عادت الى دمشق وتوفيت بها في هذه السنة ا هـ »

وقد ترجم لها أيضاً عبد الحي بن احمد بن محمد العكري بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ١٦٧٨ م في كتابه « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » وذلك بنقله ترجمة الغزّي المتقدمة لها .

وتعرّض صاحب شذرات الذهب لذكرها في ترجمة محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء بمصر المتوفى سنة ٩٢٥ هـ ١٥١٩ م[1] فذكر نزولها بداره بالقاهرة ومدحها له وما كان من اكرامه لها .

مؤلفاتها الأخرى . — ومما يؤسف له أن تفقد سائر مؤلفاتها التي أوردها الغزي في ترجمتها .

بلاغة شعرها . — ولها بيتان من الشعر قالتهما في جسر الشريعة لما بناه الملك الظاهر برقوق هدما كثيراً مما شيده فحول الشعراء من البيوت وهما :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر والأنام له مطيعهْ

مجازٌ في الحقيقة للبرايا وأمرٌ بالمرور على الشريعه

ولها في الغزل باع طويل وخيال واسع ومن غزلها :

كأنما الخال تحت القرط في عنقٍ بدا لنا من محيا جلّ من خلقا

(١) كان قاضي قضاة الحنفية بحلب ثم ولي كتابة السر مدة ست عشرة سنة وكان آخرهم في الديار المصرية وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة سمحاً فاضلاً أصيلاً عريقاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نجم غـدا بعمود الصبح مستتراً خلف الثريا قبيل الشمس فاحترقا

اما بديعيتها التي تقدم الكلام عليها فمطلعها :

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

قرية باعون — باعون التي تنتسب اليها عائشة — على ما حققهـا بطرس البستاني مؤلف دائرة المعارف المتوفى سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م[1] — هي قرية صغيرة من قرى عجلون عدد بيوتها في زمن المؤلف كان ١٣ بيتاً فقط .

قلنا وهي من أعمال حكومة شرق الأردن اليوم وقد نبغ فيها جمال الدين الباعوني الذي قرر في أواخر سنة ٨٥٩ هـ ١٤٥٥ م في قضاء الشافعية بدمشق وشمس الدين محمد بن احمد بن محمد بن احمد الباعوني الشافعي المتوفى سنة ٨٧١ هـ ١٤٦٦ م وابن اخيه محمد بن يوسف بن احمد المتوفى سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م .

والراجح أن هذا الأخير هو أخو عائشة المترجم لها كما أن شمس الدين عمها

ونبغ بعد هؤلاء القاضي صلاح الدين زين العابدين الذي أقام بصالحية دمشق وولي نيابتها مدة طويلة ثم توفي سنة ١٠٣٦ هـ ١٦٢٦ م رحمهم الله رحمة واسعة .

عبد الله مخلص

---

(١) دائرة المعارف ج ٥ ص ١١٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net